

Hadda Titouche حدة طيطوش

طالبة دكتوراه-جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة

heddatitouche@gmail.com

صورة الإسلام في كتاب "الإسلام وسيكولوجية المسلم" لآندري سرفييه

The image of Islam in the book “Islam and the Psychology of the Muslim” by Andre Servier

لطالما أسال موضوع الإسلام والمسلمين الكثير من الحبر، عند النخبة المثقفة من الأوروبيين ومن المستوطنين الذين عاشوا في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية، سواء كانوا أدباء، مؤرخين، سياسيين، ضباط عسكريين، رجال الدين من الأساقفة والقساوسة، اختلفت آراؤهم حوله بين السلب والإيجاب، مع أن الأول قد طغى على الثاني في أغلب أعمالهم. ما حفزنا على اختيار واحد منهم في هذه الورقة البحثية لمعرفة صورة الإسلام عنده، إنه المؤرخ آندري سرفييه، صاحب كتاب "الإسلام وسيكولوجية المسلم".

الكلمات المفتاحية: الإسلام، آندري سرفييه، الحضارة اللاتينية، المسيحية، لويس برتران

The topic of Islam and Muslims has always raised a lot of attention among the educated elite of Europeans and settlers who lived in Algeria during the colonial period, whether they were writers, historians, politicians, military officers, clergy, bishops or priests. Their opinions about it varied between negative and positive, although The former has overshadowed the latter in most of their work. What motivated us to choose one of them in this research paper to find out his image of Islam is the historian Andre Servier, author of the book “Islam and the Psychology of the Muslim.”

Keywords:Islam,Andre Servier,Latin Civilization, Christianity,

Louis Bertrand

1- التعرف على فكر سرفييه من خلال أستاذه- كما يسميه- لويس برتران:

لم نجد الكثير من المعلومات حول شخصية أندريسرفييه(1876)، وما تم العثور عليه عبارة عن إشارات خفيفة لطبيعة عمله ومهنته، إذ كان رئيس تحرير جريدة La dépêche de Constantine (1908، إلى غاية تحقيق الاستقلال) (1). وإضافة إلى عمله كصحفي في عناية وقالمة، كان متحدثا باسم الكولون في الجزائر بداية القرن العشرين، وهو لائكي العقيدة ماسوني(2).

تأثر في فكره بشخصية معروفة تمثلت فيالروائي الفرنسي لويس برتران (1866-1941)-الذي يكبره بعشر سنوات-، وهذا حسب ما ذكره وأشار إليه في مقدمة كتابه "الإسلام وسيكولوجية المسلم" الصادر سنة 1923، إذ يذكر فيه قائلا: "واسمح لي أن أكتب اسمك في أعلى هذا الكتاب شهادةً على إعجابي وامتناني.إن عملي ما هو إلا تكييف مع الإسلام للفكرة التي جدتتم بها تاريخ حضارة شمال إفريقيا..". "أنا مجرد واحد من تلاميذك المتواضعين"(3)، وعلى هذا الأساس وبسبب نقص المادة العلمية، ارتأينا أن نتعرف على تكوينه الفكري من خلال التعرف على فكر ونظريات أستاذه وقدوته السيد لويس برتران.

ظهر الاثنين في فترة واحدة بالجزائر في ظل أوضاع اتسمت بالاستقرار والاستقلال على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للمستوطنين (من وُلدوا في الجزائر) الذين حصلوا على جميع الامتيازات والحقوق، بدت حينها الحاجة إلى إيجاد خلفية أيديولوجية ودينية وثقافية لهذا المجتمع الجديد تحقق لأفراده الاستقلالية والاستقرار من بقية الجوانب، حتى تتسع الهوة أكثر بينهم وبين الأهالي كحماية لهم (4)، هكذا تبنى لويس مشروع التعبير عن هؤلاء المستوطنين أو العرق الجديد كما كان يسميه.

لا يخف على أحد أن الدراسات حول برتران كثيرة، متنوعة بين المقالات والأطروحات،بما فيهاالملتقيات واللقاءات التي تناولت الأدب الاستعماري في الجزائر، هذا الاهتمام لم يأت من عدم وإنما من إنتاجاته الكثيرة، والتي غالبا ما كانت تهاجم الإسلام والمسلمين والعرب عموما، فقد سخر الروائي قلمه الموهوب لخدمة قضية مقدسة من وجهة نظره:وهي التأكيد على وجود حضارة يونانية لاتينية ونفي

وجود حضارة عربية إسلامية، طرحه هذا نابغ من كرهه للدين الإسلامي وعدائه له، متأثرا بدور هبالكاردينال لافيغري، الأب الروحي له ولأفكاره(5).

فقد استفاد برتران من تقليد الأبحاث الأثرية التي جعلها الكاردينال لافيغري تقليدا ملازما للاستعمار الفرنسي في جانبه المعرفي، الشيء نفسه حدث مع المؤرخ أندريسرفيه، فكلاهما استندا على الآثار وما خلفه الرومان وغيرهم للتأصيل لإفريقيااللاتينية، وكلاهما استخدمتا التاريخ كوسيلة لتوليد فهم جديد من أجل تفسير الوضع الاستعماري، وإضفاء الشرعية للوجود الجديد للمستوطنين(6).

لقد ورث برتران قناعات لافيغري وهو ما زاده ثقة في نفسه، قناعات ارتبطت بسلبية الإسلام ورجعية المسلمين "الإسلام المنافس العنيد للحضارة الغربية والملازم الحتمي لكل البربريات، الإسلام هو العدو الأصيل عداوته أبدية لا تزول ولا تتغير"، ومن هذه المفاهيم تأسست نظريته: نظرية اللاتينية أو الرومنة وهي قضية برتران الأولى بامتياز، هذه الفكرة تطورت معه إلى أن أصبحت محور حياته، وبالتحديد سنة 1922، حيث انطلق في مشروع الترويج لها والدفاع عنها(7). لتصبح أفكاره مصدر إلهام للكثير من الكتاب والمفكرين وحتى المؤرخين، وأكبر دليل على ذلك ما قدمه لنا أندري سرفيه.

ذهب لويس برتران في تأثره بالكاردينال لافيغري إلى مدى بعيد جدا، فقد خصص كتابه المعنون بـ Devant L'islam لتمجيد أعماله وإنجازاته التي لا ينكرها غيره، ويحسده عليها الكثير من بعده: من رجال الدين والسياسيين والحكام، وواقفه في رأيه أندريسرفيه.

كان برتران شديد الحرص على اللاتينيين في مقالاته ودراساته، ولم يرى وجود غيرهم في إفريقيا؛ لا العرب ولا البربر إطلاقا، فكانت كتابته محاولة منه لإحياء التاريخ أو جعل الماضي الميت يتحدث مرة أخرى، باستحضار الخصائص البربرية والعربية، وبالتالي جعل شمال إفريقيا تاريخيا اقليما غربيا أو أوروبا. خطابه سمي بخطاب اللاتينية -الذي تبنته جمعيات بعد تغير نظام الحكم من عسكري إلى مدني 1870 (8).

أثر تاريخ الإمبراطورية الرومانية اللاتينية التي كانت رمزا للقوة المسيحية على أفكار لويس برتران وايدولوجياته، ومنه يمكن للمرء أن يرى العلاقة بين مخاوفه من الإسلام وتطلعاته إلى إعادة بناء عظمة الإمبراطورية المفقودة، الإمبراطورية الرومانية في الجزائر وأراضي شمال إفريقيا التي دمرها المسلمون(9).

تجمع الأبحاث على أن أستاذ المؤرخ أندري سرفييه قد اتبع خطأ واحدا (خطابا واحدا) منذ دخوله الجزائر نهاية القرن 19، إذ ساهمت ببيئتها في تأليفه لمؤلفات كثيرة (وصلت حوالي 27 عمل) أهداها إلى الإدارة الاستعمارية وإلى المستوطن الأوروبي، عكست مواقفه الثابتة- التي ورثها لغيره ثم تصرف فيها غيره من بعده كل حسب توجهه- من الإسلام: على أنه دين التطرف، والعدو الأبدي للحضارة لا قبل له بها، موقفه من المسلمين: كسالي وخبيثون، لا يضعون سلاحهم ضد الأوروبي إطلاقا إلا إذا عجزوا عن حمله...، ومع هذا لا يمكن الثقة بهم في جميع الأحوال (10). وهذا ما سنقرأه في صفحات كتاب المؤرخ أندري سرفييه.

إن الصورة التي نقلها برتران في كتاباته هي الصورة نفسها التي سينقلها سرفييه في كتابه أيضا، فقد اعتمدت مؤلفاتهم في رأينا أولا وقبل كل شيء على العرض السلبي- هذا لا يعني أن كل الكتابات خاصة الأدبية منها كانت لغرض الذم والقذح- الذي قدمته النخب المعرفية لهذا الدين ولهذا المجتمع، فقد خلصت الدراسة التي قدمها لنا الباحث الفرنسي Renaud Terme إلى أن النصوص التي تم إنتاجها حول الإسلام تناسب المعرفة المسيحية عنه خاصة القرن 17 و18، وغالبا ما تكون خاطئة أو حتى مضللة يشوهون ويحتقرون ويستهزؤون بمحمد وأحوال الوحي الإسلامي (11).

خلص الباحث Renaud إلى أن بداية القرن العشرين كانت نقطة الالتقاء بين الاستشراق العلمي والعملية، فكل من يعرف الإسلام مدعو إلى إبداء الرأي والمشورة بشأن إدارة الأراضي الإسلامية المستعمرة وحول العلاقات التي يجب الحفاظ عليها مع بقية العالم الإسلامي، وحول السلوك الذي يجب اتباعه في التعامل مع هذه الأمور (12).

كان المجال الأخير من اختصاص أندري سرفييه، والذي من المؤكد أنه قد اطلع مرارا وتكرارا على كتب وارنیهومارسييهوغوتيه، وروايات أستاذه، إذ أن صاحب كتاب "الإسلام وبيكولوجية المسلم" سينطلق في دراسته مما انتهى إليه أستاذه حينما ذكر: "الإسلام هو العدو الأبدي للحضارة الأوروبية، والمسلم إنسان غامض لا يمكن فهم نفسيته ولا الوثوق فيه، فوجب على الإدارة أن تتعامل معه على هذا الأساس وأن تطرح أي فرضية لاستيعاب المسلمين..."، وهو ما سيحاول سرفييه التظهير له.

2- كتاب L'Islam et la psychologie du musulman :

إذا ما عدنا لأسباب تأليف الكتاب، فإننا سنستأنس بعبارة سرفييهالتي أوردها في مطلعها "أن عمله ما هو إلا تكييف مع الإسلام للفكرة التي جدد بها لويس برتران تاريخ حضارة شمال إفريقيا، بنفيه وجود حضارة عربية، وواقع وجود حضارة لاتينية فقط". جاء الكتاب عصارة لـ 25 سنة من البحث لإثبات العقم الكئيب للإسلام والقوة الأبدية للفكر اليوناني اللاتيني، أي أن الكتاب سيكون مباركة وتأييدا لفكرة وقضية تم تبنيها لسنوات، ومحاولة -من وجهة نظر صاحبه- لتقديم صورة حقيقية عن المسلم والإسلام، والقضاء على المغالطات التي روجها العلم السطحي أو المتحيز.

صدر الكتاب في باريس سنة 1923، وهو متوفر بصيغة pdf باللغتين الفرنسية والانجليزية، حوى عشرين فصلا في حدود 209 صفحة، وهي دراسة ليست بالطويلة ولا بالقصيرة. قدم صاحبه ملاحظة مهمة في مطلع الفصل الأول: "يجب أن تكون لفرنسا سياسة إسلامية مستوحاة من الحقائق، وليس من الآراء والأساطير السائدة".

عنوان الكتاب يثير الاستغراب والتعجب "الإسلام وبسيكولوجية المسلم"، كما أنه يكشف عن اهتمام المؤرخ سرفييه بما يعرف بعلم النفس الإسلامي، إذ يؤكد في كتابه على أن فهم نفسية المسلم واختراقها تساعد -من وجهة نظره- على فهم أسباب انهيار امبراطورية الخلفاء، وفهم الأسباب التي جعلت السوريين والبربر والمصريين بمجرد أسلمتهم يفقدون الطاقة والذكاء والمبادرة التي أظهروها في ظل السيطرة اليونانية والرومانية.

ما تم ملاحظته أن الكاتب لم يعنون أيا من الفصول، بل كان يعرض في مقدمة كل واحد منها مجموعة من النقاط التي سيتطرق لها في المضمون، المنهجية نفسها استخدمها على طول الكتاب، بالرغم من أننا سجلنا تفاوتات كبيرا في حجم الفصول، فبعضها لا يزيد عن سبع صفحات والبعض الآخر قد يصل إلى ثلاثين صفحة، وارتبط هذا في اعتقادنا بأمرين اثنين لا ثالث لهما: أهمية المواضيع والعناصر التي يطرحها في ثنايا البحث والتي تأخذ مساحة واسعة أثناء الطرح والعرض والتحليل والإثبات، أو نقص المادة العلمية وشحها في البعض الآخر، وهذا أمر طبيعي في جميع الأعمال التاريخية.

عالج الكتاب في فصوله الكثير من العناصر لكنها تصبفي عنصرين اثنين هما أساس دراسته: الإسلام كدين (أصله وحقيقته)، نفسية المسلم بمتابعة سلوكياته وتصرفاته منذ نزول الوحي وظهور سيدنا

محمد في ساحة مكة إلى الفترة المعاصرة 1922 بما حملته من أحداث ووقائع، مع محاولة التنظير للسياسة التي يجب اتباعها لجعل الجزائر مقاطعة فرنسية، وفق برنامج حدد جميع خطواته.

أدرج أندريسرفييه خاتمة دراسته كمنقطة في الفصل الأخير (العشرون)، جاءت في شكل مختصر وموجز، وبأسلوب واضح ومفهوم، دون إطالة أو تعقيد، قدمها على شكل أفكار أساسية للدراسة وهي استنتاجات-مما يسهل على القارئ أو المطلع استيعاب وفهم ما قدمه هذا الأخير من مقدمته إلى خاتمته، وقد يكون الأمر مقصودا وهادفا في الوقت ذاته.

تنوعت المصادر والمراجع التي اعتمدها الكاتب لإثبات طرحه وأفكاره، أغلبها باللغة الفرنسية، إضافة إلى مصادر وأمّهات الكتب في التاريخ الإسلامي -مترجمة إلى اللغة الفرنسية- كابن خلدون والمقرئزي، ومختصر خليل، واستدل بسور كثيرة من القرآن الكريم، كما لاحظنا بأنه لم يعتمد كثيرا على كتب أستاذه لويس برتران إلا في فصل أو فصلين رغم أن محتواها له علاقة بصلب مضمونه.

نعود الآن إلى الظروف التي ظهر فيها الكتاب والتي من خلالها يمكن أن نحدد قيمته: على المستوى الداخلي كانت الجزائر تعيش مرحلة وتجربة حاسمة بعد الحرب العالمية الأولى بظهور الأحزاب السياسية وظهور الأفكار الجديدة (المطالبة بالحقوق، المساواة، التمثيل النيابي...) كل هذا من شأنه أن يهدد الوجود الفرنسي في الجزائر، وإن لم يتحقق ذلك على الأقل سيسعى المسلم الجزائري لأن يبحث عن مكانه وحقوقه (13) كغيره من المستوطنين.

إضافة إلى ظهور فكر إصلاحي تقوده نخبة تكونت في المشرق، سطرت لنفسها أهدافا تتمثل في محاربة الطرق الصوفية والعودة بالإسلام إلى مساره الأول والصحيح، مما سينجم عنه لا محالة الاحتواء المطلق للدين الإسلامي، ورفض الحاضر المتمثل في الواقع الذي يعيشه الأهالي (14)، كل هذا سيزيد من خوف المستوطنين وقلق الإدارة الفرنسية.

بعد أن سلطنا الضوء على الظروف الداخلية التي ظهر فيها الكتاب، وجب أن نتطرق إلى ظروف خارجية ارتبطت بإلغاء الخلافة الإسلامية وقيام دولة تركيا بتاريخ تشرين الثاني من سنة 1922 الذي يمثل القطع التاريخي مع الإمبراطورية العثمانية وبناء السلطة الكمالية في إطار نظام جديد (15)، أدت هذه المخرجات إلى فوضى وغضب كبير في الوسط الإسلامي، ووجهت انتقادات كثيرة لمصطفى كمال

أتاتورك في صفحات الجرائد والصحف المعاصرة. في ظل هذا الظرف ظهر كتاب المؤرخ أندريسرفييه الذي لم يكن الأول من نوعه لكن فترة ظهوره كانت خاصة.

لا يمكن لنا أن نرصد الصدى الذي حققه هذا الكتاب في الوسط الجزائري-بالنسبة للأهالي المسلمين-، لكن من المؤكد أنه لقي الترحيب المطلق من طرف المستوطنين والفرنسيين، لأنه سيكون دليلا -بغض النظر عما إذا كان طرحه سليما أم لا- على أحقيتهم بالجزائر أو إفريقيا اللاتينية -مهد المسيحية وموطن الأجداد- كما كان يسميها الكاردينال لافيغري باستمرار.

3- الإسلام عندسرفييه من خلال كتابه "الإسلام وسيكولوجية المسلم":

نقلت فصول الكتاب نظرة المؤرخ الفرنسي أندريسرفييه حول الإسلام والمسلمين، وموقفه من الحضارة العربية الإسلامية، ومن كل الأحداث التي عرفها المجتمع العربي المسلم منذ نزول الوحي على الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الفترة المعاصرة، هي نظرة قد لا تختلف نهائيا عن النظرة التي قدمها من سبقه من رجال الدين، ومن المستشرقين وأغلب السياسيين.

اعتبر سرفييه أن الإسلام عنصر لا يجب الاستهانة به في مصير البشرية، نظرا للعدد الهائل لأتباعه والذين يقدرون بـ 300 مليون، هؤلاء كلهم في خطر بسبب الإسلام، سيتم تجميد عقولهم وشل أفكارهم، كما حدث مع المجموعات الأولى، التي عانت ولا زالت تعاني حالة التراجع والتخلف، إذ اعتبرها بعيدة كل البعد عن أي تطور، وصنفها في الدرجة السفلى من السلم. وللخروج من هذه الأزمة رأى بضرورة اتباع سياسة إسلامية يصل تأثيرها إلى العالم الإسلامي بأكمله(16).

إن الإسلام ليس عقيدة أصلية من وجهة نظره، بل هو عبارة عن تجميع للتقاليد اليونانية اللاتينية والكتاب المقدس والمسيحية، تبنها العقل العربي وجردها من الرمزية والفلسفة، واستمد منها عقيدة دينية باردة وجامدة. اتهم سرفييه السوريين والفرس والمصريين بأنهم ابتكروا أسطورة محمد، وقاموا بتزيين قصته إلى حد جعلها نوعا من الرواية. ولم يكتف بذلك بل عاد ليؤكد من جديد بأن الإسلام هو المسيحية المتكيفة مع العقلية العربية، وهو كل ما استطاع العقل البدوي أن يستوعبه من المذاهب المسيحية-وقد سبق له أن وصف العربي بأنه همجي قاس، جاف، خياله واسع لكنه خال تماما من القوة الإبداعية، قريب جدا من الحيوان البدائي-(17).

أنكر سرفييه الحضارة العربية الإسلامية تماماً، ونفى أي تأثير حضاري للعرب المسلمين على المسيحيين-الذين انبهروا في وقت من الأوقات بالبريق المزيف لهذه الأخيرة- "...لقد أدقيا محكومة الخلفاء فيشمال أفريقيا، فيصقلية، ثم في إسبانيا، إلخ. إثارة العلاقات بيننا الغرب ودولاً مشرق. وبفضل هذا العلاقات توصلتاً عما لالفلسفة والعلوم المكتوبة باللغة العربية أو المترجمة من العربية إلى اللاتينية إلى أوروبا، وأعجب علماء العصور الوسطى، الذين كانوا خلفيتهم العلمية خفيفة للغاية، بسذاجة هذا الكتاب التي كشفت لهم معنا المعرفة وطرق التفكير جديدة" (18).

وعليه اعتبر سرفييه الحضارة العربية الإسلامية أسطورة لا أكثر، فلم ينظر إطلاقاً للعرب على أنهم مخترعون مبتكرون، بل إنهم مجرد ناسخين ناقلين، كما انتقد المؤرخين الذين ما زالوا يتحدثون عن تلك الأسطورة، واعتبرهم من القادحين في الحقيقة التاريخية الظاهرة للعيان.

خصص سرفييه العديد من صفحات كتابه لتقديم النبي محمد عليه الصلاة والسلام كما يراه هو، إذ حط من قدره، ووصفه بأسوأ وأبشع الصفات "...كان بدويًا منحطاً، شوهته الحياة المستقرة. كان شاباً به صراعاً ضد الفقر ..،

افتقر إلى الشجاعة، وشكلت شخصيته تناقضاً غريباً مع العرب، هؤلاء الرجال الأقوياء والحيويين والمحاربين، الذين لم يفهموا شيئا من الخيال"، وتناول في وصفه "إنه يتسامح مع تعدد الزوجات، والأفضل من ذلك أنه يمارسها بنفسه.."، "إنه يعترف بالعبودية، والمعاشرة، وقانون القصاص.." (19).

إن التشريع الإسلامي في نظره قانون روماني راجعه العرب وصحوه، وكذلك العلم الإسلامي ما هو إلا علم يوناني فسره العقل العربي، حتى العمارة ما هي إلا تقليد وتحريف للعمارة البيزنطية، إنه إلغاء تام للحضارة الإسلامية العربية ونفي مطلق لتفوقها أو براعتها في أي مجال.

إن الإسلام قد فرض نفسه على عقول الناس من خلال جاذبية مذهبه، أما في شبه الجزيرة العربية فقد استخدم محمد العنف لكسب أتباعه (أي أنه استخدم السيف وأراق الدماء)، حتى أن الشعوب الخاضعة لقوة أخرى في شمال أفريقيا ومصر رحبت في الإسلام في البداية كأداة للتحرر، وعندما تنبهوا فأتوا الأوان.

إن المجتمع الإسلامي كما يراه سرفييه مجتمع تيقراطي، كل شيء يخضع لحكم القانون الديني حتى أصغر الأعمال التي يمارسها الفرد في حياته اليومية، والأمر كذلك داخل المؤسسات، في هذا

المجتمع يمثل الله السيد الأعلى كل شيء له، المعرفة له والعمل له، والهدف من كل هذا تمجيده. ولم يستثن القرآن من نقده، فقال أنه يحتوي على وصفات متناقضة إلى الحد الذي يجعلنا الصعاب استخلاص قواعد سلوكية دقيقة، بعيداً عن الاعتراف بوحداية الله وسأله رسولاً. هكذا أعلن محمد أحياناً أنهم بالضرورة يحترموا المسيحيين واليهود، أهلاً للكتاب، تماماً مثل المسلمين، وأحياناً يجب إبادتهم دون شفقة. وهذا مجرد مثال واحد على تناقضاته (20).

لقد جعل الإسلام العربي، وبالتالي المسلم يؤمن إيماناً راسخاً بتفوقه الفكري، وهو غير قادر بسبب جفاف العقل وفقر الخيال على تصور حالة أخرى غير حالته، لقد جعله يعتقد اعتقاداً راسخاً أنه وصل إلى مرحلة لا تضاهى من الكمال، والتي يملكها هو وحده.

إن الإسلام نظام قاس جعل المسلم مشلولاً فكرياً، عقله معلق أمام أي شيء لم يتم التخطيط له أو تحديده في القانون الديني، وبذلك فهو معاد بشكل منهجي لأي جديد، لأي تعديل لأي ابتكار، وعليه خلص إلى أن الجمود هو السمة الأساسية لأي مجتمع مسلم (21).

قال سرفييه أن الإسلام العنيف والإسلام الرجعي ما زال موجوداً في الجزائر إلى اليوم، وأن خطرهم لازال قائماً، وعودته تظل احتمالاً قائماً، لذا تبنى مبدأ الحياد المطلق اتجاه الدين الإسلامي، كما بارك في برنامجه السياسي الشمال أفريقي إدخال الجزائر المسلمة في المسيحية والقضاء على الإسلام تماماً، ففصل كثيراً في المشروع "إذاً انهار مسجد، لانحوا لأنزفوه؛ فلنترك هذا العناية للمسلمين، وبما أنك سلهم يمنعهم من أي جهد، فسوف يستسلمون لهلاكهم قبل كل شيء، دعونا لانبادر بالبناء مؤسسات جديدة، علماء ملجذبين تعاطفوا عياناً...، وما نقولهم على المساجد ينطبق أيضاً على المؤسسات الإسلامية المختلفة. دعونا لانقلق بشأنهم؛ فلنتركهم يسقطون في الهلاك لعدم قدرتهم على تجديد أنفسهم، والتطور حسب احتياجات الحديثة. كما لا ينبغي أن ننسحب لتشجيع تعليم اللغة العربية، وخاصة التعليم الديني" (22).

4- آراء حول الكتاب ومضمونه:

تعددت الآراء حول الكتاب بين مؤيد ومعارض لمضمونه، كان أول رأي صدر من الروائي لويس برتران الذي حصل على مخطوطة الكتاب قبل أن يطبع في صورته النهائية، اعتبره الرجل عملاً ممتازاً

ومن أعظم الخدمات التي تقدم للقضية الفرنسية في جميع أنحاء شمال إفريقيا لتوفير السكان الأصليين بماضيهم، ومنه الاعتزاز والافتخار بتاريخ الأجداد. كما علق لويس برتران على المهمة التي قام به أندريسرفييه في صفحات كتابه، بقوله لقد حاول سرفييه القضاء على الأحكام المسبقة التي ترتبط بالاعتقاد بأن الهيمنة الإفريقية كانت مجرد حادث في تاريخ البلاد(23).

أثنى لويس برتران على جهود المؤرخ سرفييه والتي تمثلت في إثبات أن العرب لم يحققوا شيئاً، وأن الإسلام ما هو إلا إفراز من العقل العربي، فهم لم يضيف شيئاً إلى التراث القيم للحضارة اليونانية اللاتينية. وهذا القول ليس بالغريب على لويس برترانالذي ذهب أبعد من ذلك حين ذكر أن الإسلام هو العدو الأبدي للحضارة الأوروبية، والمسلم إنسان غامض وعدواني لأن العنف متأصل فيه(24).

اعترف لويس برتران بالجهود المضنية التي قام به سرفييه لإثبات أن الأخلاق، العادات والتقاليد الموجودة في العالم العربي هي إرث يوناني لاتيني، مع سعي واضح منه لنفي ما تم تبنيه لقرون طويلة. وقد اعترف برتران بالصبر والدقة التي تحلى بها سرفييه للدفاع عن فكره وطروحاته، لذا رأى عمله عملاً متكاملًا.

لم يكن له منه إلا تحفظاً واحداً تلخص في الآتي: لم أكن قط قوياً مثله في التقدم غير المحدد والمستمر للإنسانية -وأخشى أن تكون لديه أوهام فيما يتعلق بالأتراك الذين ما زالوا رأس الإسلام والذين هم وينظر إليهم المسلمون الآخرون كمحررين في المستقبل. ولكن كل هذامسألة قياس. أريد أن أؤمن بالتقدم بمعنى معين وإلى حد معين. وأنا لا أتردد في الموافقة على أن الأتراك هم أكثر الشرقيين تعاطفاً، إلى أن يأتي اليوم الذي نزودهم فيه بأنفسنا، من خلال إسرافنا وغبائنا، بالوسائل التي تجعلهم أعداء لنا مرة أخرى.."(25).

أما الرأي الآخر والمناقض تماماً لما ورد سابقاً فهو لفرحات عباس، المتكفف الجزائري وصاحب كتاب " الشاب الجزائري " 1930، الذي رد من خلاله على سرفييهوعلى أستاذه لويس برتران صاحب نظرية الأعراق المنحطة، ونظرية تفوق الإنسان الأوروبي -النظريات نفسها تبناها سرفييه-، ما جعل عباس يصنفه من المؤرخين الذين تقننوا في تشويه الإسلام: فصور محاربي الإسلام النبلاء ورجاله الأتقياء بأنهم غزاة متلهفين على الغنائم، متعطشين للدماء حيث قارنهم سرفييه بقبائل الهانسان(26).

اعتبر فرحات عباس الكتاب تجسيدا لاستمرار الحرب المسيحية ضد الإسلام -دين سقط منذ أمد طويل-فعده معلماً في الحقد، حقد لم يخفه صاحبه، مع أحكام مسبقة وسيئة ضد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، وضد حضارة الإسلام الشديدة التميز، ما جعل عباس يقف موقف المنتقد ضد ما ورد في الكتاب، وموقف المدافع عن الحضارة الإسلامية وعن وجودها، وأكد أن الحضارة الهيلينية ما هي في الحقيقة إلا استمرار لحضارات سابقة،والتي استمرت بدورها عبر الحضارة الرومانية، ولما انحطت الأخيرة تركت المشعل للإسلام الذي كان حديث النشأة، محملاً بالمهمة الثقيلة لرعاية الشعلة(27) .

بالنسبة لفرحات عباس فإن سرفييه ومن خلال كتابه لم يكن متحيزا اتجاه الإسلام واتجاه الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية، وظل على تعنته حتى عندما وضع مبدأ الحياد المطلق لاحقا، فقد بارك في برنامجه السياسي الشمال افريقي بإدخال الجزائر المسلمة في المسيحية والقضاء على الإسلام، وهذه العملية لا تتم بشكل صريح وفي وضح النهار بمحاربة المساجد وتشجيع الآباء البيض، وهذا ما رآهعباس زيغ مجرم ووجود مطلق للدين الإسلامي، وطريق سيؤدي إلى الإفلاس المؤكد، لأن الإسلام ليس في المسجد أو في الصومعة البيضاء؛ إنه القوة المعنوية العالية(28).

خاتمة:

وفي ختام هذه الورقة، وبعد عرض ما اشتملت عليه من عناصر حول صورة الإسلام عند سرفييه، فإننا نخلص إلى النتائج الآتية:

-يعتبر كتاب أندري سرفييه "الإسلام وسيكولوجية المسلم" امتدادا لما تناولته الدراسات الاستعمارية حول الإسلام والمسلمين.

-يمكن اعتبار الكتاب تجسيدا للمشروع الكولونيالي الذي يهدف إلى استعادة إفريقيا اللاتينية-مهد المسيحية-

-تبين من خلال مطالعتنا للكتاب أنه يتسم بالقراءة الانتقائية للتراث الإسلامي، بغية نقل صورة مشوهة عنه بسرد الجوانب السلبية، وعض النظر عن إيجابياته، إما بنفيها أو نسبتها إلى الحضارة الرومانية.

-لمسنا في الكتاب نزعة عدائية مبالغ فيها لكل ما يمت للإسلام بصلة، وأشنع ما في هذه العدائية هو وصف النبي عليه الصلاة والسلام بأوصاف بشعة.

المصادر والمراجع:

- (1)نجية كيالة، البرقية القسنطينية La dépêche de Constantine والثورة الجزائرية، مذكرة لنيل شهادة الماجيستر، إش: عبد الكريم بوالصفصاف، جامعة منتوري قسنطينة، 2010-2011، ص25.
- (2)أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج6، دار الغرب الإسلامي، 1992، ص322.
- (3)André Servier, L'Islam et la psychologie du musulman, Paris, 1923, p3.
- (4)خالد عثمانين، المشروع الكولونياليالجزائري في الأدب الفرنسي في بداية القرن العشرين: أعمال لويس برتران نموذجاً، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الأدب العربي، إش: وحيد بن بوعزيز، جامعة الجزائر2، 2020-2021، ص126.
- (5)خالد عثمانين، المرجع السابق ص198، 199.
- (6)Fatima Bensidhoum, Louis Bertrand is le sang des races (1899) A new historeist Reading, المجلة الممارسات اللغوية، م9، ع2016، 1، ص100.
- (7)خالد عثمانين، المرجع السابق، ص199، 202.
- (8)Fatima Bensidhoum, ibid, p99.
- (9)Sara Djadi, Nadia Naar /Qada, Colonial islamophobia in the texts of the Algerianist Writer Louis Bertrand, Ichkalat Journal, vol 11, No 3, Annee 2022, p 536.
- (10)خالد عثمانين، المرجع السابق، ص312.

(11)Renaurd Terme, la perception de l'islam par les élites françaises (1830-1914), Histoire, université Michel de Montaigne, Bordeaux III, 2016, p458.

(12)ibid.

(13) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، ج2، دار الغرب الإسلامي، 1992، ص298.

(14) زيلوخة بوقرة، سوسولوجيا الإصلاح الديني في الجزائر، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نموذجاً، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، 2008-2009، ص74.

(15)حميدبوزرسلان، تاريخ تركيا المعاصر، تر: حسين عمر، ط1، 2009.

(16)André Servier, p6.

(17) ارتبط اسم العرب في أذهان الأوروبيين بالإسلام، فإذا ذكر الإسلام ذكر معه العرب بالضرورة، وكان الفرنسيون هم ممثلي أوروبا في الجزائر منذ الاحتلال فما يصدر عنهم ضد الإسلام ينصرف ضد العرب، ومن المهاجمين الأوائل على هؤلاء هو وارنبييه في كتاباته المختلفة... للمزيد أنظر، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص311.

(18)André Servier, ibid, p9.

(19)ibid, p32, 43.

(20)ibid,p129.

(21)ibid,p155.

(22)ibid, p194.

(23)ibid, p4.

(24) Sara Djadi, Nadia Naar /Qada, ibid, p538.

(25)André Servier, ibid, p5.

(26) فرحات عباس، الجزائر من المستعمرة إلى الإقليم الشاب الجزائري (1930)، تر: أحمد منور، الجزائر، 2007، ص 69.

(27) نفسه، ص 80، 81.

(28) نفسه، ص 84، 85.